



ثورة يوليو في الوثائق البريطانية (الحلقة الرابعة)

بقلم: د. رعوف عباس

9 أغسطس 2002

صفقة السلاح الروسي

- بعد غارة إسرائيل على غزة كان على مصر أن تحصل على السلاح من أى مصدر.
- شوين لاي ونهرو وستيفنسون نهبوا عبد الناصر إلى أن الغرب لن يقبل بسهولة إدخال السلاح السوفييتى إلى المنطقة.

كانت مأساة حرب فلسطين عام 1948 من بين العوامل التي جعلت جمال عبد الناصر يقيم تنظيم "الضباط الأحرار" من العناصر التي كانت تضمها تنظيمات مختلفة داخل الجيش، سواء من كان منها حزبيا أو متصلا بتنظيم سياسى مدنى أو كان غير ذلك، بهدف إقامة جبهة تمثل طليعة الثورة الوطنية لتغيير نظام الحكم الفاسد الذى عجز عن تحقيق الأمنى الوطنية فى الاستقلال، والذى كان وراء حالة الضعف التي عانى منها الجيش والتي ترتبت عليها نكبة فلسطين...

ولذلك كان هدف إقامة جيش وطنى قوى من بين الأهداف الستة الشهيرة

لثورة يوليو. ولما كانت إقامة الجيش الوطنى القوى تتوقف على التسليح الجيد الحديث والتدريب المتقدم، فقد كان فى مقدمة المطالب التي قدمتها الثورة إلى الولايات المتحدة تزويد الجيش المصرى بالسلاح، وأرسلت بعثات عسكرية إلى هناك بالفعل لتقديم مطالب مصر من مختلف أنواع السلاح والطائرات، ولكنها عادت بخفى حنين بسبب حرص الولايات المتحدة على عدم الإخلال بالتوازن العسكرى بين إسرائيل والدول العربية من ناحية ولأن بريطانيا لاتتظر بعين الارتياح إلى تسليح الجيش المصرى الذى لم يعد تحت هيمنتها مما يعرض الوجود البريطانى للخطر.

وتكررت مطالبه حكام مصر الجدد بالسلاح فى معظم لقاءاتهم مع مبعوثى الغرب الذين ترددوا على مصر فى السنوات الثلاث الأولى للثورة، وفى كل مرة كانوا يتلقون ردودا مراوغة وجاءت الغارة الإسرائيلية على غزة (28 فبراير 1955) التي حملت رسالة سياسة مؤداها أن إسرائيل قادرة على فرض التسوية التي تريدها بقوة السلاح وليس بالتفاوض وأن النظام المصرى عاجز عن الدفاع عن حدوده ومن ثم لا يستطيع أن يتزعم نظاما دفاعيا عربيا عن الشرق الأوسط كبديل لمشروع الدفاع عن الشرق الأوسط الذى يطرحه الغرب.

وهكذا أصبح الحصول على السلاح مسألة حيوية بالنسبة لمصر. وعندما إشتراك جمال عبد الناصر فى مؤتمر بانودج (إبريل 1955) فاتح شوين لاي (ئيسوزراء الصين) فى هذه المسألة وطلب منه أن يستطلع مدى استعداد السوفييت لتزويد مصر بالسلاح وعندما تلقى عبد الناصر ما يفيد استعداد السوفييت لتلبية طلبات مصر من السلاح وجه للسفير الأمريكى بالقاهرة آخر نداء لبيع السلاح لمصر. وفهمت القوى الغربية أن وراء الأكمة ما وراءها، وأن مصر فى طريقها إلى التعامل مع الكتلة الشرقية كمورد للسلاح.

وقد تلقى عبد الناصر تحذيرات من عدة أطراف من مغبة التعامل مع السوفييت كمصدر للسلاح، فقد لفت شوبن لاي نظره إلى المتاعب والمخاطر التي يمكن أن تلاقيها مصر إذا أدخلت السلاح السوفييتي إلى المنطقة، وتلقى تحذيرا مشابها من نهرو، ومن رالف ستيفنسون (السفير البريطاني في مصر) عندما قابل جمال عبد الناصر لوداعة بمناسبة تركه لمنصبه، فنصحته بعدم التعامل مع غير الدول الغربية كمصدر للسلاح إذا صح ما يشاع عن ذلك.

وعندما أحست القاهرة باكتمال الصفقة التي اتخذت تشيكوسلوفاكيا غطاء لها، وتسرب أنبائها للدوائر الغربية، وتحرك الولايات المتحدة للتدخل الفعلي وتوجيه انذار إلى عبد الناصر، قطع عليهم الطريق بحضور افتتاح معرض للصور أقامته الشئون العامة بالقوات المسلحة (يوم 27 سبتمبر 1955) حيث أعلن على الشعب المصري والعالم كله نبأ الصفقة.

ورغم ما أكدته الحكومة المصرية على لسان الرئيس وغيره من المسؤولين أن الصفقة تجارية محضة، والإتفاقية الخاصة بها لا تتضمن أى بنود سياسية، وأن هوية السلاح تحدها اليد التي تمسك بالسلاح وليس صناعه، وما قدمته مصر من تبريرات منطقية مؤداها أن إسرائيل تزداد تسلحا وعدوانا، والعرب يزدادون ضعفا وعجزا عن الدفاع عن أرضيتهم. رغم ذلك كله قامت قيادة الغرب ضد مصر وعبد الناصر وبدأت توضع التصورات والسيناريوهات بطريقة مواجهة ما حدث، إختارنا منها هنا وثيقتين : إحداهما مذكرة أعدتها قسم الشرق الأدنى بالخارجية البريطانية، لتقدير الموقف وذلك يوم 23 سبتمبر 1955 (تاريخ تسرب معلومات الصفقة إلى السفارة الأمريكية بالقاهرة كان 21 سبتمبر، وأبلغت بريطانيا في اليوم التالي). وعلى هذه الوثيقة تعليق في شكل مذكرة مرفوعة لوزير الخارجية البريطاني.

اما الوثيقة الثانية فتمثل محضر اجتماع ممثلي الخارجية الأمريكية والخارجية البريطانية (في 3 أكتوبر 1955) في محاولة للتوصل إلى سياسة موحدة تجاه ذلك التطور "الخطير" في منطقة الشرق الأوسط بعد أسبوع من إعلان عبد الناصر رسميا عنها.

مذكرة قسم الشرق الأدنى 23\9\1955

كان موضوع صفقة السلاح الروسي متوقعا منذ أيام فقد أبدى الأمريكان عدم ارتياحهم لبيع السلاح لمصر، وكان برنامج أمريكا لبيع السلاح لمصر يتضمن ما قيمته 27 مليون دولار، خصصت للمرحلة الأولى منها عشرة ملايين دولار، ولكن المصريين طلبوا مدهم بثلاثين قاذفة من طراز B 26 على أن يدفعوا ثمنها بالعملة المحلية التي تخصص لإنفاق الأمريكان في مصر.

وفيما يتعلق بما يجب أن يكون عليه موقفنا من التطورات الأخيرة فإن النقاط الأساسية تتمثل فيما يلي :

1. لا تستطيع تجاوز خطى الأمريكان، فقد يصل الأمر حد الكارثة إذا نشأت ظروف تؤيد فيها العراق على حين تؤيد الولايات المتحدة مصر.
2. يعلم العرب أن مصر كانت تعمل ضد بريطانيا في السودان وليبيا، وأخرجتنا من قناة السويس، وأعلنت عداها للحلف التركي - العراقي وتريد مصر التأثير على وضعنا بالأردن، واشتركت مع السعودية واليمن في الهجوم علينا فيما يتعلق بعدن واليمن.
3. يدرك العرب اتجاه عبد الناصر نحو الحياد على نحو ما حدث في باندونج، ولا نعرف على وجه اليقين إلى أى مدى يريد عبد الناصر أن يكون نهرو الشرق الأوسط، ولا يعنى عقد صفقة أسلحة مع روسيا أنه دخل المعسكر الروسي، ولكنها تعكس تردده بين الشرق والغرب.
4. فإذا قمنا نحن والأمريكان بمعالجة المسألة باعتبارها ابتزازا على الطريقة المصرية، فسوف يجد العرب في التعامل مع الغرب كرهينة عليها دفع الفدية، أكثر نفعا لهم من التعاون مع الغرب، وقد أصبح العراق محط

كان ذلك تقدير الموقف من جانب المختصين بالشرق الأدنى بالخارجية البريطانية، وفيما يلي نص محضر اجتماع ممثلى وزارتي الخارجية البريطانية والأمريكية بحثا عن موقف موحد من صفقة السلاح التي قلبت الموازين فى الشرق الأوسط.

محضر إجتماع بتاريخ 3 أكتوبر 1955

اقترح ماكميلان (وزير الخارجية البريطانى) أن تبدأ المناقشة باستعراض للتطورات التي حدثت فى القاهرة فتساءل دالاس (وزير الخارجية الأمريكى) عما إذا كانت هناك معلومات جديدة عن كميات السلاح التي تسلمتها مصر وتواريخ التسليم فقال المستر هير إن هناك معلومات قديمة، وأن الصفقة سوف تكتمل فى غضون خمسة شهور حسب العقد. فقال دالاس أن المستر الآن سمع فى القاهرة أن الروس عرضوا على مصر معونات اقتصادية أيضا كما عرضوا عليهم مساعدتهم فى بناء السد العالى فى أسوان.

وقال المستر ريموند هير إن النية اتجهت إلى السعى لإيقاف الصفقة أو على الأقل تحجيمها بالتدخل لدى عبد الناصر أو لدى موسكو، فأصاب الفشل هذه المحاولة ونشك فى نجاحها لو حاولنا ذلك مرة أخرى لذلك علينا أن نضع فى اعتبارنا أن الصفقة مستمرة وأن علينا أن نتعايش معها. وهناك ثلاث خطوات للعمل يمكن اتباعها، أن نحاول وضع عملية ألفا ALPHA (الخاصة بتسوية النزاع بين العرب وإسرائيل) فى المقدمة على نحو ما يذهب إليه السفير البريطانى فى القاهرة، وفى الوقت نفسه نعمل على عدم انتشار العدوى فى المنطقة (بوريا والسعودية على سبيل المثال) فإذا فشلت هذه السياسة يجب أن ننظر فى اتخاذ موقف حازم من عبد الناصر فنعمل ضده أولا ثم نقوم بعزل مصر. وهنا تبرز مشكلة من يخلف عبد الناصر؟ هل عزل مصر مرغوب فيه، وهل الحكمة تقتضى أن نقسم العالم العربى الى قسمين: أحدهما مع الغرب والأخر مع السوفيت؟

قال المستر دالاس إنه لا يريد أن يتخذ موقفا عنيفا الآن، فإذا كان التغيير فى مصر مطلوبا فيجب ألا يبدو أنه قد جاء نتيجة لتهديداتنا، فقد يقلب ذلك العالم العربى ضدنا، ويجعله أكثر تقبلا للتغلغل السوفيتى، مما قد يلحق الضرر بمصالحنا الاستراتيجية والبيترولية، وقال إن لديه انطباعا عن أن عبد الناصر لا يريد الارتقاء فى أحضان السوفيت ولكنه يريد أن يلعب دور تيتو فيحصل من الطرفين على أقصى ما يمكن الحصول عليه وهذا أفضل على أى حال من أن يورط نفسه مع الطرف الآخر. ذلك رأى دالاس أن التزام الهدوء أفضل، حتى نرى ما يمكن عمله على ضوء معرفة حجم السلاح الذى تم توريده وقدرته العسكرية. ونشك فى جدوى هذه الأسلحة بالنسبة لمصر، ونراقب تأثيرها فى الشرق الأوسط ككل. ولكن العامل الأساسى هنا هو السوفيت وليس العرب، فإذا كان السوفيت يرمون إلى التوسع فى المعونات الاقتصادية وبيع السلاح فى الشرق الأوسط، فان ذلك يؤدى إلى توتر علاقتنا معهم، وفى هذه الحالة يجب أن نمارس ضغطا عليهم حتى يتراجعوا، ومن الأفضل أن نحاول عزل الحادثة الحالية. ورغم أن هذه السياسية ليست مغرية إلا أن دالاس طرحها لعدم وجود بدائل.

وأذا أردنا أن نضغط على مصر فإن السودان يصبح أداة مناسبة، رغم أن الحكومة الأمريكية لا تعرف الكثير عن السودان، فقال ماكميلان إن لديه انطباعا من تقارير السفير البريطانى فى القاهرة أن عبد الناصر قد ارتبك بسبب ردود أفعالنا إزاء الصفقة، وأنه لا يرغب فى أن يدخل فى نزاع معنا، وأن السياسة التي قد تحقق نجاحا هى الذهاب إلى القائلين أننا نفهم الصعاب التي يواجهها، وأنها على استعداد للتعاون معه من أجل التغلب عليها. ويجب أن نتحدث معه بلهجة الأسف وليس التأييب والغضب، ونطلب منه أن يضع حدودا للصفقة وألا يسمح للفنيين السوفيتيين بالقدوم إلى مصر. ونطالبه بأن يتخذ أفعالا تدل على حسن نياته، ومن الأفعال التي لن تكلفه شيئا، أن يعلن تأييده لمشروع جونسون (لرى وادى الأردن عن طريق مشروع لإعادة توزيع المياه تمهيدا لتوطين بعض اللاجئين هناك).

واستطرد ماكميلان قائلا أن علينا إقناع عبد الناصر بأن السبيل الوحيد للتغلب على المشكلات التي تواجهه هو إبرام الصلح مع إسرائيل، وننتهز هذه الفرصة للدفع بمشروع ALPHA، فإذا لم يستجيب ضغطنا عليه من أجل ذلك.

واقترح راسل (المستشار السياسى بسفارة أمريكا بتل أبيب) نقاطا أخرى يتم طرحها على عبد الناصر، فيقال له إنه رغم مطالبته بمعاملة صفقة السلاح باعتبارها عملا تجاريا، فإن السوفييت يرون غير ذلك فهم يريدون التغلغل فى الشرق الأوسط من خلال المعونات الاقتصادية والسلاح، وأنه تتوفر لدينا معلومات أن السوفييت سوف يضمنون حدود البلاد العربية فى حالة توقيع الولايات المتحدة على حلف أمنى مع إسرائيل، وأن السوفييت يريدون التقدم فى المنطقة. وقد قدموا عروضاً لسوريا والسعودية، فإذا أبدى عبد الناصر عدم استعداده لوضع رقبته تحت النير السوفييتى، فإن ذلك يعنى عدم قبوله بالتورط مع السوفييت.

عندئذ قال المستر ماكميلان أن سياستنا يجب أن تكون ذات شقين : أن نقول لعبد الناصر أننا على استعداد لمساعدته على عزل الصفقة التى عقدها، ومنع النتائج السياسية التى قد تترتب عليها وتثير قلقنا.

ويجب أن يصاحب ذلك بذل جهد أكبر مع البلاد العربية المتعاونة معنا. والخطان معا سوف يساعدان على تبديد أثر الانتصار السياسى الذى حققه السوفييت.

وسأل دالاس المستر ماكميلان عما إذا كان نهرو قد لعب دورا فى تلك الصفقة ؟ ففى ماكميلان ذلك غير أن دالاس قال أن لديه إحساسا بأن نهرو دورا فى ذلك.

ولفت المستر هير النظر إلى ما يمثله النموذج المصرى من خطر على العالم العربى، مما يتطلب أن يعلن عبد الناصر أن الصفقة لا تعنى التوجه نحو السوفييت، فمهما قال فى الأحاديث الخاصة، تأتى تصريحاته العلنية مختلفة تماما.

وذكر المستر دالاس أن السفير الأمريكى (أبا ايبان) زاره (فى 30 سبتمبر)، وقال له أن الخطوط أصبحت الآن فاصلة فى الشرق الأوسط، فقد اتجه عبد الناصر إلى السوفييت ضد الغرب، ومن ثم وجب على الغرب أن يدعم إسرائيل، وأن إسرائيل تطالب بميثاق أمن إضافة إلى السلاح ولمح أبا ايبان إلى إمكان قيام إسرائيل بحرب وقائية ضد مصر. وأضاف راسل أن أبا ايبان صرح فى لقاء تليفزيونى بأن إسرائيل لن تجلس جلسة الأرنب المذعور الذى ينتظر أن يبتلعه الثعبان المصرى.

وتساءل دالاس عما إذا كان من الممكن استخدام التصريح الثلاثى الصادر عام 1950 (الخاص بتقييد توريد السلاح إلى الشرق الأوسط)، فقال ماكميلان إن التصريح قام على أساس اشتراك الدول الثلاث فى مراقبة التسليح فى المنطقة وأن الوضع تغير الآن، ومن الأفضل أن نركز على ضرورة إبرام العرب الصلح مع إسرائيل.

إلى هنا ينتهى محضر اجتماع ماكميلان ودالاس وبعض معاونيهما لدراسة ما يمكن عمله إزاء صفقة السلاح الروسى التى كانت متغيرا استراتيجيا مهما فى ذلك الحين، قلب مخططات الغرب رأسا على عقب. ونلاحظ التباين الواضح بين الوثيقتين : فالوثيقة الأولى تقدم رأى الخبراء الذين يعرفون المنطقة لغة وثقافة وتاريخا، ويعرفون مدى أهميتها اقتصاديا واستراتيجيا للغرب، والطرق المثلى للتعامل مع شعوبها لذلك نجدهم يقترحون أن يكون الحل توريد السلاح للعرب وإسرائيل معا، أى كسر القيود التى وضعها التصريح الثلاثى عام 1950 وإن كان ذلك يقتضى أن يلعب الغرب دورا أساسيا فى الحيلولة دون الصدام بين الطرفين، طالما كان هناك إمكان استيعابها فى مشروع الدفاع عن الشرق الأوسط. ومثل رأى مساعد وزير الخارجية البريطانية للشرق الأوسط موقفا أكثر جرأة حين ذكر بالمتاعب التى لقيها الغرب من جراء مساندة إسرائيل، ونصح بالتخلى عنها، وهو ما رفضه وزير الخارجية فى تعليق قصير كتبه بخط يده على الوثيقة أكد فيها التزام الغرب تجاه إسرائيل وجودا وأمنا.

أما الوثيقة الثانية، فتمثل حيرة الحليفتين مع ذلك الزعيم المصرى الذى قلب الأمور فى المنطقة رأسا على عقب، ومن الغريب واللافت للنظر أن الإدارة الأمريكية أحسنت تقديم شخصية عبد الناصر، فهى على ثقة أنه ليس شيوعيا أو عميلا

للسوفييت أو الغرب، ولكنه يريد أن يحقق لبلاده مكاسب من الطرفين تماما كما فعل تيتو في يوغوسلافيا. كلمة واحدة لم ترد في هذا التقييم الصحيح كان من الممكن أن تكمله وهي أنه كان حريصا على استقلال بلاده، لأن ذكرها كان معناه تسليمهم بأن زمام الهيمنة على الإقليم قد ولى. لذلك نجد دالاس نفسه يتخير التعامل مع الموقف بهدوء ودون انفعال، ومحاولة إقناع عبد الناصر بالاكْتفاء بهذه الصفقة وألا يسعى لتكرارها مقابل حصوله على شهادة "حسن السير والسلوك" من الغرب. والحل الأمثل عندهم هو وضع حد لهذا الصراع الذى أصابهم بالأرق، ألا وهو الصراع بين العرب وإسرائيل وتضمن بقاء إسرائيل وبالتوصل إلى تسوية تحقق الصلح بين العرب وإسرائيل وتضمن بقاء إسرائيل وتقبل العرب لهذا الوجود مما يتيح فرصة دمج إسرائيل مع بلاد المنطقة فى المشروع الدفاعى للغرب. وهم يرون أن هذا الحل الناجح (فى رأيهم) يحتاج ممارسة الضغط على عبد الناصر لإرغامه على إبرام الصلح مع إسرائيل.

لم يتوصل الاجتماع - كما يبدو من الوثيقة - الى الاتفاق على سياسة مشتركة تجاه مصر، ولعل اتجاه الأمريكان إلى معالجة الموقف بقدر من اللين لم يرق لأيدن الذى رأى فى صفقة السلاح صفقة مدوية للغرب، فكأن اشتراكه فى سحب تمويل السد العالى الذى دفع عبد الناصر إلى إعلان تأميم قناة السويس، ومن ثم بدأ الإعداد للعدوان الثلاثى وموقف دالاس فى الاجتماع سالف الذكر، يفسر موقف أمريكا ضد العدوان فيما بعد.